الانقلاب الجمهورى فى اسبانيا

١ — اسبانيا ما قبل الحرب

بقلم الأستاذ محمد عبد الله عنان

تعانى اسبانيا الجمهورية منذ قيامها أزمات ومتاعب متوالية ، وتتعاقب فيها القلاقل والاضطرابات المختلفة . وقد استطاعت حكومة السينور ليرو الأخيرة التى قامت بعد أزمة وزارية طويلة أن تسيطر على الموقف نوعا . ولكن استنادها إلى العناصر الفاشستية والمحافظة يثير سخط الأحزاب الاشتراكية والمتطرفة ، ويذكى النضال الخالد بين الجبهة الرجعية والجبهة الثورية . وتتنازع اسبانيا فوق ذلك قوتان أخريان : هما قوة الملوكية ، وقوة الكتلكة . وقد قامت الجمهورية الاسبانية الفتية على انقاض الملوكية والقوى الدينية التى تحركها . ولكن فلول الملوكية ما زالت تنبث فى اسبانيا وتعمل فى الداخل والخارج لاثارة الصعاب فى وجه الجمهورية ، وما زالت قوى الكتلكة رغم انهيارها تحاول النهوض والعمل لاسترداد نفوذها وسلطانها . وما زالت الجمهورية قوية تقبض على ناصية الحوادث ، ولكن الخلاف الذى يضطرم دائما بين العناصر الجمهورية والحرة من جهة ، وبينها وبين العناصر المتطرفة والثورية من جهة أخرى ، يزيد فى متاعبها ويعرضها لاخطار شتى .

قامت الجمهورية الاسبانية منذ ثلاثة أعوام فقط ، فى ابريل سنة ١٩٣١ نتيجة لنضال ديموقراطية ثائرة تضطرم منذ أعوام طويلة . ولكن الديموقراطية الاسبانية قديمة ترجع إلى أكثر من قرن . وقد ظفرت اسبانيا بدستورها الحديث سنة ١٨١٢ ، أثناء الحروب البونابارتية ، وهو الدستور الذى وضعته جمعية وطنية فى قادس ، ووعد فرديناند ملكها المنفى يومئذ باحترامه ، ولكنه لما عاد إلى اسبانيا بعد ذلك بعامين على أثر انتهاء الحروب البونابارتية ، عمل على توطيد الملوكية المطلقة وانتقاص الحريات والحقوق الدستورية ، فعاد الشعب الاسبانى الى الثورة فى سنة ١٨٢٠ ، واضطر فرديناند الى الاعتراف بالدستور كرة أخرى ، ولكنه لم يلبث ان عاد الى انتهاكه ، وعارته الجنود الفرنسية التى أمده بها لويس الثامن عشر على تنفيذ سياسة الحكم المطلق . وكانت معظم الشعوب الاوربية تنزع يومئذ الى الحركات التحريرية ، ولكن الملوكيات القديمة لم تقف جامدة أمام هذه النزعة ، ومنذ سنة ١٨١٥ عقدت المعاهدة المقدسة بين العروش الاوربية القديمة فى روسيا ، والنمسا ، والمجر ، وألمانيا ، للتعاون على اخماد النزعات والحركات الشعبية الحرة التى بثتها مبادىء الثورة الفرنسية ، وأذكاها مبالغة الملوكية القديمة فى الاستئثار بالسلطان والحكم المطلق ، وفى تجاهل الرغبات والامانى الشعبية . وفى أواخر عهد فرديناند (نحو سنة ١٨٣٠) اضطرم النضال بين فرناند وأخيه الدون كارلوس على مسألة وراثة العرش . وكان فرديناند حتى سنة ١٨٢٩ عقيما لاولد له ، ثم ولدت له بعد ذلك ابنة ، فعمد فى الحال الى تغيير قانون الوراثة ليحرم أخاه كارلوس من ارتقاء العرش وليبقى العرش لابنته . ولما توفى سنة ١٨٣٣ ، اعترف « الكورتيز » (البرلمان) بابنته ايزابيلا ملكة لاسبانيا بوالدتها وصية على العرش ، واعترفت ايزابيلا بعد ذلك بالدستور الاسبانى الجديد الذى وضع سنة ١٨٣٦ ، على مثل دستور قادس . ولكن عهدها كان فياضا بالاضطراب والقلاقل ، وتوالت فيه الحكومات الضعيفة العاجزة وفسدت النظم والادارة ؛ وفيه فقدت اسبانيا معظم أملاكها الامريكية على أثر الحركات التحريرية التى قامت فى امريكا الجنوبية وانتهت بتحرر شعوبها من النير الاسبانى ، وقيام الجمهوريات الامريكية الجديدة ، واستمرت أسبانيا عصرا تعانى غمر الاضطراب والفوضى ؛ ولكن الديموقراطية استطاعت خلال ذلك أن تنمو وأن تقوى ؛ وبذلت يومئذ لتحطيم الملوكية عدة محاولات عنيفة ، ووقعت من جراء ذلك حوادث دموية كثيرة . واشتد ساعد الحركة الجمهورية الى حد روعت معه الملوكية ؛ واستمرت اداة الحكم على ضعفها وانحلالها ، والعرش فيما بين ذلك يهتز توجسا وفرقا ، حتى غدا الموقف مما يستحيل استمراره . ولم تقو الملكة ايزابيلا على مواجهة هذه الصعاب والخطوب كلها ، ففرت الى فرنسا ، ثم تنازلت بعد ذلك عن العرش لولدها الفونسو الثانى عشر . وكان الفونسو وقتئذ طفلا فى نحو العاشرة ، فلبث العرش الاسبانى خاليا مدى حين ، وأقيمت حكومة مؤقتة تحيط بها الصعاب والازمات من كل ناحية ثم كان عرض العرش الاسبانى على ليوبولد الالمانى من أمراء آل هوهنزلرن ، ومعارضة نابوليون الثالث فى ذلك ، وقيام تلك الازمة

الخطيرة التي التمست سببا لاضطرام الحرب بين فرنسا والمانيا في في سنة ١٨٧٠ ؛ فعدلت اسبانيا عن ترشيح ليوبولد . وانتهى الامر باختيار أمديس أمير سافوا ملكا لاسبانيا ، فجلس على عرشها نحو ثلاثة أعوام يعمل في ظروف صعبة ، ثم استقال وغادر البلاد وخلا العرش كرة أخرى ؛ وهنا اضطرمت البلاد بثورة تحريرية قوية ، واستطاع الاحرار أن يعلنوا قيام الجمهورية ، وان يقيموا الحكم الجمهوري مدى عام (سنة ١٨٧٤) ؛ وكان هذا أول ظهور حقيقي للديموقراطية الاسبانية ، ولكنه كان ظاهرا خلبا ، لأن العناصر الرجعية لبثت قوية تعمل لاسترداد سلطانها . وكانت اسبانيا تعاني في نفس الوقت مصائب الحرب الاهلية ، لأن الدون كارلوس وأنصاره انتهزوا فرصة الاضطراب العام ليحاولوا انتزاع العرش فوقعت الحرب الكارلية الثانية (سنة ١٨٧٢) ، ولبثت نحو أربعة أعوام تمزق أوصال الامة ، ثم انتهت أخيرا بسحق قوى الدون كارلوس وفراره الى فرنسا . وعندئذ أعلن الفونسو الثاني عشر ، وكان عندئذ طالبا بمدرس في انكلترا — انه ملك اسبانيا الوحيد ، واستمر انصاره في الداخل يدبرون له سبيل العودة ، حتى استطاع ان يعود وأن يجلس على عرش اسبانيا سنة ١٨٧٥ ، وهو فتى لا يجاوز السابعة عشرة ؛ وكان الفونسو الثاني عشر رغم حداثته يتمتع بخلال ومواهب طيبة ، فاستطاع بمعاونة وزيره الشهير شاروفاس دل كاستيلو ان يقمع الفوضى وان يعيد الامن والنظام ، وان يقوم باصلاحات واسعة المدى . وتنفست اسبانيا في عهده الصعداء ، وتمتعت بفترة من السكينة والرخاء . ولكن الموت لم يمهله ، فتوفي شابا في السابعة والعشرين من عمره سنة ١٨٨٥ ، وترك ارملته حاملا ، فوضعت بعد وفاته ولدا سمي بالفونسو الثالث عشر ، واعلن منذ مولده ملكا لاسبانيا وعينت أمه الملكة ماريا كرستينا وصية للعرش

***

كان الفونسو الثالث عشر خاتمة لتلك السلسلة الحافلة من ملوك نشتالة الذين لبثوا قرونا يحاربون العرب والاسلام في اسبانيا والذين قضوا بعد طول الجهاد على الاسلام والحضارة الاسلامية في اسبانيا . وكان وريث ملوكية عريقة كانت مدى حين تفوق جميع الملوكيات الاوربية في العظمة والبهاء ، وتبسط سلطانها ما وراء المحيط على قارة بأسرها . ولكنه لم يرث من ذلك التراث العريض الباذخ سوى بقية واهنة مضعضعة . كانت الملوكية الاسبانية في الواقع تطوي مرحلتها الاخيرة في بطء ، وشاء القدر أن يكون مصرعها على يد الفونسو الثالث عشر آخر ملوك قشتالة .

تولت الملكة ماريا كرستينا زمام الامور حتى يبلغ ولدها أشده . وكانت مهمة شاقة ، لأن الامور لم تكن قد استقرت بعد ، ولكن الملكة الارمل استطاعت ان تعمل في جو من العطف سواء في الداخل ، أو في الخارج ، فهدأت الخواطر وتحسنت الاحوال نوعا . وكان أعظم الحوادث في هذا العهد نشوب الحرب الاسبانية الامريكية ، وفقد اسبانيا لباقي مستعمراتها ، وكان سبب نشوبها الخلاف بين اسبانيا وأمريكا على جزيرة كوبا ، وتطلع امريكا الى انتزاعها من اسبانيا . ونشبت الحرب بين الدولتين سنة ١٨٩٨ ، وهزمت اسبانيا وحطمت قواها البحرية ، وفقدت كوبا وباقي مستعمراتها في الهند الغربية ، وفقدت أيضا جزائر الفلبين الغنية في الهند الشرقية ، ولم يبق لها شيء من تراثها العريض فيما وراء البحار وكبدتها الحرب نفقات باهظة أنضبت مواردها وأثقلت كاهلها مدى حين .

وفي مايو سنة ١٩٠٢ توج الملك الفونسو الثالث عشر ، وهو في السادسة عشرة من عمره ، وتولى زمام الحكم ، وبدأ بذلك عهد جديد في الملوكية الاسبانية استطال مدى ثلاثين عاما ، وكان عهد الفصل في تاريخها . وأبدى الفونسو منذ ولايته همة ونشاطا ، بيد انه لم يمض نحو عام حتى توفي السينور ساجستا رئيس الوزارة وزعيم الاحرار ؛ وكان سياسيا بارعا يتمتع بكفايات جمة ، فاضطربت شؤون الحكم ، وانتقلت السلطة الى المحافظين ، وتعاقبت منهم في الحكم خمس وزارات في نحو ثلاثة اعوام ، وأخذ الملك الجديد يواجه كل الصعاب التي واجهها اسلافه . وكان الفونسو الثالث عشر يبدي منذ البداية ميولا رجعية قوية ويلتمس الوسائل المختلفة لمقاومة النزعات الحرة والحريات الدستورية ، ويعتمد في تنفيذ سياسته على العناصر الرجعية المحافظة ويجمعها حوله ؛ وكان ذلك سببا في بث السخط حول العرش وحول شخصه حتى أنه دبرت يوم زواجه من الاميرة فكتوريا اوجيني ابنة اخي الملك ادوارد السابع ، أول محاولة لاغتياله (سنة ١٩٠٦) ، وبدأت من ذلك الحين سلسلة من الاعتداءات على شخصه شاء القدر ان ينجو منها جميعا . وكانت الحركات والنزعات الديموقراطية والثورية اثناء ذلك تنمو وتشتد وخصوصا في مقاطعة قطلونية . وكانت قطلونية فوق ذلك مسرح

حركة انفصالية قوية ومهد معركة مضطرمة بين الوطنيين القطلان والراديكاليين المركزيين بزعامة السينور ليرو . وعاد الاحرار الى منصة الحكم منذ سنة ١٩٠٥ على يد زعيمهم موريه واستمروا بضعة أعوام ؛ ولكن الملك مالبث أن عاد الى محالفة المحافظين ، وكانت المسألة المراكشية تشغل اسبانيا منذ حين ، وكانت قد سويت مع فرنسا فى سنة ١٩٠٤ بمعاهدة فرنسية اسبانية ، اعترف فيها بحقوق اسبانيا ، وحددت المنطقة الاسبانية تحديدا يرضى اسبانيا . ولكن المسألة المراكشية استمرت شغلا شاغلا للسياسة الاسبانية ، بل غدت كما سنرى كابوس السياسة الاسبانية مدى اعوام طويلة ، وكانت عاملا جوهريا فى تطور الحوادث فى اسبانيا ، وفى تذرع العناصر الرجعية باقامة حكم الطغيان الشامل الذى لبث عدة أعوام يخمد انفاس الشعب الاسبانى ، ثم انتهى بذلك الانفجار الحاسم الذى حطم صرح الملوكية القديمة ، وحقق فى اسبانيا آمال الديموقراطية كاملة شاملة .

وخلف المحافظون الأحرار فى منصة الحكم على يد زعيمهم السينور مورا ، وفى ذلك الحين اشتدت الحركة الثورية فى قطلونية ، واضطرمت الحرب فى مراكش فى نفس الوقت لأن بعض قبائل الريف هاجمت الخط الحديدى الذى يربط المناجم الأسبانيـــة ؛ وقررت الحكومة أن تعبىء الجنود الاحتياطية القطلونية ، فثارت قطلونية احتجاجاً على ذلك ، ونظم اعتصاب عام فى برشلونة امتد الى باقى أنحاء الولاية (يوليه سنة ١٩٠٩) ، وانفجر بركان الثورة فقبضت العسكرية على زمام السلطة ، وقمعت الثورة بمنتهى القسوة ، وأعدم الزعيم الثورى فرانشيسكو فيرر ؛ فازدادت البلاد سخطاً ، واضطرت الوزارة المحافظة الى الاستقالة ، وعاد الأحرار الى الحكم أولا على يد السينور موريه ، ثم بعـــد استقالته على يد السينور كاناليخاس (فبراير سنة ١٩١٠) . واستمرت الوزارة الحرة فى الحكم حتى مقتل رئيسها كاناليخاس فى نوفمبر سنة ١٩١٢ . وامتاز هذا العهد بحادثين فى منتهى الخطورة ، أولهما : اضطرام المعركة بين الحكومة الحرة والكاثوليـــك ، بسبب اضطهاد الحكومة للكاثوليك وسخط الفاتيكان من أجل ذلك ؛ والثانى قيام الخلاف بين اسبانيا وفرنسا بسبب المسألة المراكشية . وكانت فرنسا تزداد توسعاً فى مراكش حتى شعرت اسبانيا أنها تهدد منطقتها ومصالحها ؛ واتهزت ألمانيا هذه الفرصة للتنويه بمصالحها فى مراكش ، وأرسلت الطراد « باتير » الى مياه أغادير بحجة حماية مصالحها ، واضطرت فرنسا أن ترضى ألمانيا بتحقيق بعض مطالبها فى الكونغو ، واضطرت من جهة أخرى أن تحترم سيادة اسبانيا على المنطقة الأسبانية . وكان ذلك فوزاً للوزارة الحرة ، ولكن اشتدادها فى إخماد الحركة الثورية فى قطلونية انتهى بمقتل رئيسها (نوفمبر سنة ١٩١٢) ؛ فخلفتها وزارة محافظة برئاسة السينور داتو لبثت فى منصة الحكم حتى ديسمبر سنة ١٩١٥ ، وفى عهدها نشبت الحرب الكبرى . وأعقبتها وزارة حرة برئاسة الكونت رومانونيس ، فاستمرت حتى أوائل سنة ١٩١٧ . ولزمت اسبانيا الحياد أثناء الحرب ، واستفادت من حيادها فوائد تجارية واقتصادية جمة وتمتعت بفترة من الرخاء الحسن ؛ وكان الرأى العام الاسبانى خلال الحرب يتراوح بين تأييد الحلفاء وتأييد ألمانيا . فالأحرار وأحزاب اليسار تميل مع الحلفاء ؛ والأحزاب المحافظة ورجال الدين يميلون مع ألمانيا . وكان السلام الذى تمتعت به اسبانيا خلال الحرب نعمة سابغة وعاملا كبيراً فى استقرار شئونها وأحوالها .

وفى أواخر سنة ١٩١٧ تحركت احزاب اليسار (الاحزاب الاشتراكية) كرة أخرى ، ودبرت اعتصاباعاما فى جميع اسبانيا . وكانت الديمقراطية ترمى بهذه المحاولة الى تحطيم النظام القائم ، وإقامة جمهورية اسبانية ديموقراطية ، ولكنها اخفقت فى تدبيرها واستطاعت العسكرية أن تسحق الثورة فى مهدها . وكانت العسكرية تتطلع دائما الى بسط نفوذها وسلطانها على شئون الحكم ، وكانت ترى من حقها بعد أن انقذت الملوكية والنظام القائم من ثورات الديموقراطية غير مرة ، أن تستأثر هى بالسلطة ، وأن توجه سياسة البلاد طبقا لرأيها ، وقد استطاعت فى الواقع ان تحقق هذه الغاية الى حد كبير على يد الوزارة المحافظة التى قامت يومئذ برياسة السينور جارسيا بريتو ، وتولى فيها وزارة الحربية رجل من رجال العسكرية هو الجنرال لانشيرفا ، ولكن هذا الطغيان العسكرى لم يطل يومئذ امده لما ابداه لانشيرفا من عجز وضعف ؛ فسقطت هـــذه الوزارة المسيرة ؛ والفت وزارة حرة برئاسة الكونت رومانونيس (ديسمبر سنة ١٩١٨) ؛ وعلى يد هـذه الوزارة التحقت اسبانيا بعصبة الامم التى كانت يومئذ معقد كثير من الآمال والاماني . ولكن الوزارات الحرة كانت تصطدم دائما بعثرات وصعاب جمة سواء من جانب العرش ، وقد كان يؤثر دائما جانب

الطغيان والقمع ويعتمد على مؤازرة العناصر الرجعية والعسكرية والدينية ، أو من جانب العسكرية وقد كانت ترهق بضغطها كل حكومة لاتذعن لارادتها ووحيها . فسقطت وزارة رومانونيس ، وخلفتها وزارة محافظة برئاسة السينور مورا ، ثم وزارة محافظة أخرى برئاسة السينور تركا . وكانت هذه الوزارة الاخيرة وزارة قوية مستنيرة ، ولكنها اصطدمت بارادة العسكرية ولم تذعن لها ، فاستقالت مرغمة ، ولكن المحافظين استمروا فى الحكم ايضا ، أولا على يد السينور سالازار ثم على يد زعيمهم السينور داتو الذى الف الوزارة الجديدة فى مايو سنة ١٩٢٠ . وكانت اسبانيا ترزح يومئذ تحت خطبين عظيمين : أولهما اضطرام الثورة فى قطلونية ، وثانيهما اضطرام الحرب فى مراكش ؛ وكانت حوادث قطلونية دائمة كابوس السياسة الداخلية ، كما كانت حوادث مراكش كابوس السياسة الخارجية ، فحاولت وزارة داتو أن تقمع الثورة فى قطلونية وانساقت كالعادة الى القسوة والتطرف متأثرة بارادة العسكرية والعرش ، ولكنها لم تفلح فى اخماد الهياج ، وانتهى الامر بمقتل رئيسها (مارس سنة ١٩٢١) ؛ فعاد السينور سالازار الى تأليف الوزارة الجديدة ؛ وهنا تطورت حوادث مراكش تطوار خطيرا نرجىء شرحه الى الفصل القادم .

محمد عبد الله عنان
المحامى

عدد الرسالة الممتاز

يصدر يوم الاثنين القادم فى ضعف العدد المعتاد حافلا بصفائف المجد العربى لاقطاب الادب والبيان فى مصر وفى الاقطار العربية وسيباع بقرش صاغ واحد فاجتهد الا يفوتك

فضيلة . . . !

للاستاذ اديب عباسى

والفضائل كالرجال : منها المائع المسترخى ، ومنها الشديد الصلب الذى لا يثنى ، ومنها المقرور مفرط القر ، ومنها المشبوب مفرط الحر ، ومنها مرهف الحد نافذ الشفرة ، ومنها كثير الفلول كليل السطوة ، ومنها الذليل المستعبد ، ومنها الابى المستكبر ، ومنها الواضح البين ، ومنها الذى ليس له أول ولا آخر . وتستطيع أن تمضى فى المقارنة الى آخر ما يحضرك من صور للرجال ونماذج . ولا عبرة بما يوحيه اللفظ من معانى القداسة والاشتقاق من الفضل - فانت تعرف جيدا أن الفضائل كالرجال أيضا تخضع لملابسات الحياة وتعنو للزمن ، وتنال من دهرها تقديراً عادلا حيناً ، وتقديراً جائرا أحيانا اخرى .

وفى عصور النضال العنيف والجهاد المحرج يقسر الناس على التفطن الى جميع مناحى الحياة دقيقها وجليلها ، ويحملون على تناول موادها تناولا سريعا مرتجلا لا اشفاق فيه - غالبا - على ماض تليد ولا مستقبل موموق بعيد . والذى يربح المعركة للقوم من هذه المواد هو الذى لاشك يربح البقاء والخلود .

ولعل الشرق فى هذا الوقت الحافل بجميع ضروب النزاع الملى، باقرب الاحتمالات وابعدها ، هو احوج مايكون الى أن يكر راجعا الى هذا الكتاب القديم الذى دونت فيه فضائلنا ، ويطمس بالقلم العريض هذه الاسطر المجرمة التى تسىء الى رجولة الشرق ، وتنتقص من حيويته الفردية ثم حيويته الاجتماعية ، وعملية التنقيح فى الاخلاق والفضائل هذه هى عملية قديمة خبرها اليونان والرومان والعرب وغيرهم ، وخبروا خيرها أصدق مختبر . ولعل أشد عصور هذه الأمم سواداً هى العصور التى كانت فيها عين الرقيب فى غفوة عنها ، فثبت بعض هذه الفضائل من وقدتها ونشبت تنهش فى الحياة وتوالى تمزيقها الى أن أحالتها فى النهاية رسما لجسم ، وبقية من جثة

والحياء — كما تعلم — من أقدم ماحط فى كتابنا الاخلاق — الحياء لا بمعنى صرف النظر وتحويل الفكر عن الشهوات والملاذ الدنيئة — بل الحياء بمعنى اعطائك سيفك لخصمك ليقتلك به ، أو